# القضيّةُ العاشرة
# ناقصاتُ عقلٍ ودين

زعموا أنّ الإسلام أهانَ المرأة وجعلها ناقصةَ عقلٍ ودين؛ مُسْتندين إلى نصّ صحيح، وهذا هو:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ الله- ﷺ- فِي أَضْحًى، أَوْ فِطْرٍ- إِلَى الْمُصَلَّى فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ، فَقُلْنَ: وَبِمَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ. قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟ قُلْنَ: بَلَى. قَالَ: فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ، وَلَمْ تَصُمْ؟ قُلْنَ: بَلَى. قَالَ: فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا»[1].

قبل الحديث عن ما يحمله النصّ من ألفاظ يستخدمها البعضُ ضدّ شريعة الإسلام الغراء، دعونا نتّفق على أمرين:

**الأوّل**: العقلُ في الإسلام هو مناطُ التّكليف، ولا تكليف دون عقل.

---

(1) ـ صحيح البخاري- حسب ترقيم فتح الباري (1/ 83).

**الثّاني**: الإسـلام سوّى بين النساء والرجال فى شيئين؛ في التكليف والجزاء.

والقرآن شاهدٌ على هذا.

إذا كان الأمرُ كذلك؛ فلا بدّ أن تكون المرأة عاقلة بما يكفي لتكليفها، وأنها لا يمكن أن تكونَ ناقصة العقل بمعنى عدم الأهلية، وإلّا لم تكنْ لتكلّف بنفس التكاليف التي يكلف بها الرّجل.

غايةُ الأمر أنّ الإسلام منحها رخصتيْن زيادةً على الرجل رحمةً بها بسبب الحيض الذي يحصلُ لها بشكلٍ دوري؛ والرّخصتان هما: الفطر في رمضان وترك الصلاة، على أن تقضي الأيّام التي أفطرتها في أيامٍ أخر، ولا تقضي الصلاة.

وهذا من مظاهر الرّحمة بها.

وهاتان الرّخصتان في العموم يجعلاها أقلّ من الرّجل في الدين؛ لكن ماذا لو عوضت المرأة هذا النّقص بعباداتٍ زائدة كذكرِ الله تعالى أو التنفّل بصلاة وصوم وصدقة وبذل مزيدٍ من جهدٍ مع زوجٍ وولدٍ أو جيران وضعفاء، ألا يمكنها الفوزُ بالسباق لو تسابقت مع الرجل؟ الإجابة بالقطع: نعم.

وأمّا نقصان عقلِها المشار إليه، فبسبب غلبةِ العاطفة الذي يجعلها أقلّ من الرجل في التّركيز، فقد تنسى فتحتاجُ مَن يذكّرها، ولذا رحمها الله تعالى ولم يكلّفها بالشهادة منفردة.

لكنْ لو تجاوزنا هذه المسألة، أليسَ من النّساء مَن تفوّقنَ على الرجال في مجالات علمية واقتصادية وسياسية.... إلخ.

أليسَ النبيّ- ﷺ- بنفسه قد شهدَ للمرأة بحكمتها ورجاحةِ عقلها عندما أخذَ بمشورتها في أحلك المواقف وأشدّ الأزمات!؟

ولا نعلم موقفًا كان أشدّ على النبيّ- ﷺ- لما فرغ من كتابة كتاب صلح الحديبية، وأمر الصحابة بحلق رؤوسهم وذبح هدْيهم، فلم يستجب منهم أحد، فدخل على زوجه أمّ سلمة فأخبرها الخبر، فتأمّل ما أشارت به أمّ سلمة على النبيّ- ﷺ- وهوَ النبيّ الموحى إليه، لكنْ كأني بربي يعلّمنا من خلال هذا الموقف أن المرأة، وإن كانت في غالب الأحيان أقلّ من الرّجل في التذكّر مقابل العاطفة الزائدة بشكل ملحوظ مقارنة بالرجل؛ إلّا أن هذا لا يمنعُ أنها قد تكون أرجح عقلًا من الكثيرين.

أخرجَ البخاريّ وغيره أنّ النبي- ﷺ- لما أنهى صلح الحديبية قَالَ لأَصْحَابِهِ: قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا، قَالَ الراوي: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ، حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ الله أَتُحِبُّ ذَلِكَ، اخْرُجْ ثُمَّ لاَ تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ. فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا»[1].

(1) ـ صحيح البخاري- حسب ترقيم فتح الباري (3/ 257).

إذا أخذنا في الاعتبار توقيتَ هذا الحديث ومناسبته، وهو قطعًا في مناسبةٍ جميلة إنها مناسبة العيد، بغضّ النّظر عن الاضطراب الحاصل من الرّاوي في مسألة تحديد أهو عيد الفطر أم عيد الأضحى!!

أقول إذا أخذنا في الاعتبار أنه يومُ عيدٍ فالأوْلى بالنبوّة الرحيمة الرقيقة أن تجامل في يوم العيد، ولا يتصوّر منه- ﷺ- أن يتوجّه خصيصًا حيث مكان تجمع السّيدات ليذمّهن، وحاشاه، وهذا ما يجعلنا نقول بأنّ النبيّ- ﷺ- ينصح نصحَ الأب لبناته، أيّتها البنية انتبهي «فإنّ غلبة العاطفة والرقّة على المرأة صارت «سلاحًا» تغلب به أشدّ الرجال حزمًا وشدّة وعقلًا، «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ».

وإذا كانت غلبةُ العاطفة إنما تعني تفوّقها على الحسابات العقلية المجرّدة والجامدة، فإننا نكون أمام عملةٍ ذات وجْهين، تمثّلها المرأة.. فعند المرأة تغلب العاطفةُ على العقلانية، وذلك على عكس الرّجل، الذي تغلب عقلانيّتُه وحساباته العقلانية عواطفَه.. وفي هذا التّمايز حكمةٌ بالغة، ليكون عطاء المرأة فى ميادين العاطفة بلا حدود وبلا حسابات.. وليكون عطاء الرّجل فى مجالات العقلانية المجردة والجامدة مكمّلًا لما نقص عند «الشقّ اللّطيف والرقيق!».

أضفْ لهذا أنّ نقص العقل الذي أشارت إليه كلماتُ الحديث النبويّ الشريف هو وصفٌ لواقعٍ تتزيّن به المرأة السويّة وتفخر

به؛ لأنّه يعني غلبة عاطفتها على عقلانيتها المجردة. ولذلك كانت «مداعبة» صاحبِ الخُلق العظيم الذي آتاه ربه جوامعَ الكلم للنّساء، في يوم الفرحة والزّينة، عندما قال لهنّ: «إنهنّ يغلبن بسلاح العاطفة وسلطان الاستضعاف أهل الحزم والألباب من عقلاء الرجال، ويخترقنَ بالعواطف الرقيقة أمنعَ الحصون!»

فهو مدحٌ للعاطفة الرّقيقة التى تذهب بحزم ذوي العقول والألباب.. ويا بؤس وشقاء المرأة التي حُرمت من شرف امتلاك هذا السّلاح الذي فطر الله النساءَ على تقلّده والتزين به فى هذه الحياة! بل وأيضًا يا بؤسَ أهل الحزم والعقلانية من الرّجال الذين حرموا فى هذه الحياة مِن الهزيمة أمام هذا السّلاح.. سلاح العاطفة والاستضعاف!.

وإذا كان هذا هو المعنى المناسب واللائق بالقائل وبالمخاطب، وبالمناسبة، وأيضًا المحبّب لكلّ النّساء والرجال معًا الذي قصدت إليه ألفاظ «نقص العقل» في الحديث النبويّ الشريف.. فتأمّل كيف جعل الرّسولُ- ﷺ- من «العيد» الذي قال فيه هذا الحديث «فرحة» أشرك في الاستمتاع بها مع الرّجال كلّ النساء، حتّى الصّغيرات، بل وحتّى الحُيَّض والنفساء!.. الذين يعرفون صاحب هذا الخلق العظيم، ويعرفون رفقَه بالقوارير، ووصاياه بهنّ حتّى وهو على فراشِ المرض يودّع هذه الدنيا؛ لا يمكن أن يتصوّروه-

ﷺ- ذلك الذي يختار يومَ الزينة والفرحة ليجابه كلّ النساء ومطلق جنْس النّساء بالذمّ والتّقريع والحكم المؤبّد عليهنّ بنقصان الأهلية لنقصانهنّ في العقل والدّين!.

وإذا كانت المناسبة يومَ العيد والزينة والفرحة لا ترشّح أن يكون الذم والغم والحزن والتّبكيت هو المقصود؛ فإنّ ألفاظ الحديث تشهد على أنّ المقصود إنما كان المديح، الذي يستخدم وصفَ «الواقع» الذي تشترك في التّحلي بصفاته غالبيةُ النساء.. إنْ لم يكن كلّ النّساء»[1].

وبعد،

فإنّ المرأة ذات مسئولية مستقلّة عن مسئولية الرجل، مسئولة عن نفسها، وعن عبادتها، وعن بيتها، وعن أسرتها.. وهي لا تقلّ في مطلق المسئولية عن مسئولية الرجل، ومنزلتها في المثوبة والعقوبة عند الله مرتبطةٌ بطاعتها لله أو معصيتها، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾[آل عمران: 195] ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾[النساء: 124] ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ ﴾[النحل: 97] ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ

(1) ـ حقائق الإسلام في مواجهة حملات المشككين (ص:387 وما بعدها) بتصرف.

وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ ﴾[غافر: 40].

إنّ المرأة مسئولةٌ أيضًا، شأنها شأن الرجل، فيما يختصّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد صرّح القرآن بمسئوليتها فى ذلك الجانب، وقرنَ بينها وبين الرجل فى تلك المسئولية، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾[التوبة: 71-72].

حتّى في الانحراف، فالمرأة إذا نافقت أو انحرفتْ شأنها شأن الرّجل فهما شريكان في الإثم، قال تعالى:

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[التوبة: 67-68]

حتّى مع آدم وحواء، فلم يحمّل القرآن الكريم حواءَ وحدَها المسئولية- كما هو الحال في بعض الموروثات- عن الأكل مِن

الشجرة، ولم يتّهمها بأنها هي مَن أخرجت آدم من الجنة، وقال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾[البقرة: 35-36].